قصة

رماد الثورة

سمية أبوبكر الغناي

منشورات
الطيوب
سلسلة
الكتاب
الليبي

رمادُ الثُّورة

مجموعة قصصية

سُمية أبوبكر الغناي

الكتاب: رماد الثورة

الكاتبة: سمية أبوبكر الغناي

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب الليبي 54

لوحة الغلاف من اختيار الكاتبة

التحرير والإخراج: موقع بلد الطيوب

جميع الحقوق محفوظة لمنشورات الطيوب

(موقع بلد الطيوب - www.tieob.com)

2023م

ولا يجوز طبع أو استنساخ أو تصوير أو تسجيل أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة كانت إلا بعد الحصول على موافقة (موقع بلد الطيوب).

الإهداء

إلى أُمي، وكل أُمٍّ ليبية

لا أوجع اللّهُ لَكُنَّ قلباً

سُمَيَّة

مقدمة

الثورةُ تحركٌ شعبيٌ يَسعى لإحداث تغيير إيجابي، وأي تغيير ما هو إلا مخاضٌ عسيرٌ لسعي وإرادة، قد يَلزمه الكثير من الوقت ليُرى واقعاً وليتحقق منه المرجو من الإفادة.

وما الثورة إلا نار، إما أن تكون تحت السيطرة فيستضاء بها وتكون مصدراً للدفء والنور. وإما أن تفقد السيطرة عليها فتستعر وتمتد وتنتشر، لتحرق وتدمر، ثم تنطفئ لتخلف رماداً في ذاكرة من عاصرها....

وفي هذا الكتاب قصصٌ مستوحاة من واقع ما خلفته الثورة التي لا زلنا بانتظار بشائر مخاضها العسير....

غَريبٌ في وَطني

أبحث عن عنوان خبأته في محفظتي، أحاول بسرعة إيجاده وأكرر تهجئته قبل تأكيد وجهتي لسائق سيارة الأجرة ولم يكن لدي أي فكرة عن صعوبة الوصول لوجهتي.

فُنقُل! بصوت مرتفع يكرر السائق اسم القرية الواقعة أقصى الجنوب. فالبداية تردد في قبول الطلب واستأذن ليسأل زملاؤه، ثم رجع بسرعة ليستعجلني أن هناك سيارة وجهتها الجنوب ستنطلق بعد دقائق ويمكنني اللحاق بها.

كنت سعيداً للغاية أن بدأت مشوار الأمانة، ذلك هو سبب تواجدي في محطة النقل البري بالعاصمة، أمانة "مختار" أخي وصديقي بالغربة. أسرعت بحمل الأمانة ومتاعي البسيط وجلست بجوار السائق وخلفنا شابين في مقتبل العمر، قدماني للجلوس تقديراً لفارق العمر على

ما يبدو. حمدت الله وبدأت أستذكر الأحداث ولماذا أنا هنا؟

منذ وقت ليس ببعيد اشتعلت بمدينة مرزق ما يشبه الحرب الأهلية "إذا جاز تسميتها بهذا المسمى"، فقُتل من قُتل وشُرد من شُرد. ولم يكن ذلك المشهد مألوفاً، فقبل حدوثه كان الاختلاف مقبولاً ومُتقبلاً لحد التعايش السلمي بين قاطني تلك المنطقة، ولكن الأوضاع تغيرت بعد أحداث فبراير قبل سنوات. فبعد فبراير كثرت المشاحنات وغاب صوت العرف والقانون، وأضحى الصراع سبيل بقاء والافتراس أمرٌ مباح. وذلك الصراع أرَّق مختار لحد الانهيار، فقرر إنهاء دراسته في علم الكيمياء قبل أشهر قليلة من مناقشة رسالة الدكتوراه، قرار مختار ذاك هَز كل من يعرفه فهو الشهم الكريم، ذو القلب الطيب والعشرة الطيبة. ولم يستطع أيٌّ مِنَّا تقبل إنهاء دراسته على هذا النحو فخطر ببالي فكرة مساعدته بطريقة قد تسهم في ثني مختار عن قراره المتسرع، وذلك لأنني قد حجزت مسبقاً رحلة زيارة طويلة لأهلي بالشمال

الغربي لليبيا ما يعني أنني سأكون أقرب أميالاً لعائلة مختار منه.

وعلى سبيل المحاولة اتفقت وزمرة من الرجال والشباب ترجع أصولنا لأماكن متفرقة من ليبيا على زيارة مختار للتخفيف عنه، وبمجرد وصولنا لشقته فالريف الإنجليزي لاحظنا على محياه آثار القلق والوهن، فلقد غيَّب الحزن بشاشته. كان ممتناً بالتفافنا حوله فانتهزت الفرصة وذكرته أن أمر الله نافذ في كل أمر، وأن الصبر على الابتلاء خصلة حميدة. ثم بدأت أوصيه أنه حتى ولو رجع لقريته عليه ألا يشترك في أي صراع أو اعتداء لإن ما يحدث يتكرر، وذكرته بعظمة قتل الروح عند الله. امتلأت عيناه بدموع وتحدث أنه لا يريد الرجوع لنزعة الحمية ولكنه يخشى على والدته وأخويه، وأنه يعلم أنهم بحاجته مادياً ومعنوياً في الأزمات، لأنه بمقام الوالد منذ وفاة والده. وبعد فترة صمت ذكرته أنني سأرجع بعد أسبوع وسأمكث بليبيا مدة ليست بالقصيرة وأنني مستعد لإيصال كل ما يريد أن يقدمه لوالدته. سواء كانت مساعدة مادية أم زيارة اطمئنان ومؤازرة، وسأقوم بما

يريد أن يفعله لها بتواجده معها. أما فكرة رجوعه يجب عليه أن يتراجع عنها إكراماً لأهله الذين ينتظرون رجوعه ظافراً بشهادة الدكتوراه. كان متردداً ولكنه أبى الموافقة حتى جاءه اتصال طمأنه على أمه وأخويه وأنهم بأمان. حينها لان مختار قليلاً واستبشر خيراً، ولكنني أصريت عليه أن يسأل ما يريد ففي كل الحالات لدي رغبة جامحة في زيارة الجنوب الليبي.

عند مغادرتنا لشقته كررت إلحاحي له أنني في طريقي لليبيا بأي حال فعليه ألا يتردد لأنني إن احتجته فلن أتردد في طلبه، حينها فقط قال: لإصرارك سأودعك مبلغ مالي وسيأتي من يستلمه منك ليوصله لأهلي. أجبت بأن طلبه بسيط ومجاب، وقد أضافت دموع مختار ثقلاً على عاتقي.

لسوء الحظ فقد مختار التواصل مع رسوله المفترض لأهله، لإصابة الأخير جراء الحرب وسفره للعلاج. أما بقية من يعرفهم فلقد انتشروا على وجه البسيطة جراء النزاع الدائر في مرزق. ولهذا ادعيت أن هناك وفدا سينطلق لإخماد فتيل الحرب وسأرافقهم، وما عليه سوى إخباري

آخر عنوان لأهله لأتواصل معهم وهكذا تحصلت على أمل لإيصال الأمانة.

عدت من شريط الذكريات ذاك على صوت سائق سيارة الأجرة منبهاً أن البنزين مشكلة بالجنوب وليس متوفراً دوماً ولهذا سيبحث عن محطة وقود لعله يظفر ببرميلين احتياطاً. لم يعارض الشابين أما أنا بدت ملامح الاستغراب على تفاصيل وجهي! ولحسن خلق السائق استمع لاعتراضي وأقنعني بأن الموت ساعة لن تؤجل، ولكن الظروف جعلت الجميع يعتاد نقل البنزين احتياطاً، خاصة المتوجهين للجنوب، رغم أن الجنوب هو منبع النفط وذلك لندرة وغلاء سعر البنزين فالجنوب الليبي. قد يكون الواقع أبلغ درس وأقسى تنبيه لما قد نسمع عنه وقد لمست في ذلك حجم المعاناة، وطوال الطريق ما وقعت عيناي على سيارة محترقة إلا واشتعلت النار بصدري المنقبض من سيناريوهات الموت والاحتراق.

توقفنا قليلاً للاستراحة بمزدة وقد أنهكني التعب والجوع، فلم يمر على رجوعي من المملكة المتحدة سوى ثلاث أيام أمضيت أغلبها بين الطرقات ولكن أمانة مختار ودموعه

كانت تدفعني لأن أؤدي الأمانة وإن كانت على سبيل راحتي.

استرحنا وواصلنا رحلتنا للشويرف وكان هم سائق الأجرة الاستفسار عن الوقود وتوفره من القادمين، أمّا الشباب بالمقعد الخلفي استجمعا كل السعادة المكنونة استبشاراً بقرب وصولهم لبوابة الجنوب حيث تقطن أسرتيهما. أخبراني أنهما يدرسان بالعاصمة ويعملان للاعتماد على نفسيهما لكن الحنين يكبر كلما طال الغياب. استمعت لكثير من القصص وشاهدت حجم المعاناة ورداءة الخدمات، لم يخلو المشهد أمامي من أشباح الموتى التي تتراقص على جنبات الطريق ورغم ذلك كان لديهم احتياطي من خفة الدم والتهكم على كل هم.

بعد ساعات قاحلة من أي مظهر للحياة إلا من بثور الموت المترامية على صفحة الطريق المعبد ظهرت معالم قيرة، فتذكرت اسمها الرنان وتذكرت بمن اقترنت وتساءلت عن حالها، قد لا يكون الحال تغير كثيراً، ولكن هي سنة الحياة يفنى البشر، وتبقى الأرض يخلف الله فيها من يشاء.

أخيراً وصلنا لمدينة براك عاصمة الشاطئ أولى محطات أودية الجنوب، أحسست أنني اقتربت من هدفي كثيراً. بدت عشوائية مرتبكة مكتظة، لم تكن كئيبة كثيراً ولكن بدت كغريق يريد الحياة.

اعتقدت أنني اقتربت من هدفي ولكن للسائق رأي آخر. فبمجرد وصولنا للمحطة ترجل الشابين بعد إلحاح منهما بالمبيت أو الاستراحة معهما لبعض الوقت، ولكن التفكير بالأمانة حرمني الانشغال بإراحة بدني ولو قليلاً. كان السائق حريص على سلامتي لأنه يعرف أن بالمنطقة مناوشات وكنت قد أعلمته أنني أريد الذهاب لزيارة صديق قديم. فاقترح علي التقدم لسبها والمبيت في بيته لأن السفر ليلاً أصبح انتحاراً هذه الأيام، وذلك لكثرة قُطَّاع الطرق والعصابات. اتفقنا على المبيت بسبها ومواصلة السفر صباحاً وهو بنفسه سينقلني لوجهتي.

لم أستطع النوم ليلتها لا أدري لما، كانت الضوضاء المنبعثة من مولدات الكهرباء القريبة تصم الآذان، وكأنها حفلة أوبرا من نوع خاص. تناولت مسكناً قويا ليُخمد بؤرة الزلزال الكامن برأسي. وبدأت باسترجاع شريط

رحلتي، ربما غربتي أنستني الكثير عن موطني ولكن في أسوأ الأحوال لم أتوقع أن الوطن توقف عند مرحلة مبكرة جداً من الازدهار وتجمد عندها. وبدأت مخيلتي تطلق العنان لأفكار التغيير الإيجابي والحلول لكل عقبة صادفتها، ونمت بدون أن أكمل الفكرة.

مع بزوغ الفجر استيقظنا عازمين على الوصول لوجهتنا والرجوع للمبيت "بسبها". أخبرني المهدي سائق سيارة الأجرة أنه يفضل الانطلاق قبل شروق الشمس ليأمن مخاطر الليل. فأجبته أنني مستعجل كذلك ولا أريد أن أمكث كثيراً "بفنقل". استودع المهدي أطفاله وأغلق الباب وانطلقنا على أذكار الصباح والمهدي منشغل بترديدها بتركيز وتمعن شديدين. وبعد انتهائه أخبرني أنه في كل رحلة يودع أبناءه ولا يدري إن كان سيعود لهم أم لا. سألته ألم تعتد السفر بعد رغم أنك تمتهنه؟ بضحكة أجابني أنه جديدٌ على كار السفر، ولو كان راتبه وراتب زوجته في أيديهما لربما ما اقتحم عالم الطرقات، لكن للمسؤولين رأي آخر على ما يبدو، فهل يدري الراعي عن رعيته؟

كان المهدي متوترا من بداية الصباح قلقاً من البنزين وقطاع الطرق ونشوب صراع غير متوقع، قام بإجراء اتصالات لتقصي أحوال الطريق وإعلام المقربين بوجهته ليتفقدوه إن غاب. ثم كرر الاتكال على الله، الاتكال على الله والحفيظ الله.

وصلنا "تراغن" قبل الظهيرة وتوقفنا عند دكان صغير رغم أن المدينة كانت كئيبة مشلولة وكأنها تحتضر. وجدنا ذلك الدكان الصغير يهم صاحبه بإغلاقه، توقفنا عنده واستعلمنا منه أخبار" مرزق".

فرد علينا أن الوضع هادئ اليوم ولكن القلق يساورنا على أقارب بها ولهذا فلا حياة ولا ضجيج. وأَسَّر للمهدي أن الأهالي يتم إجلاءهم تِبَاعاً متى هدأ النزاع، ولكن لا يخلو الأمر حسب وصفه من مشاهد مروعة وأعمال وحشية من بعض من أعمته العنجهية. ثم أوصانا ألا نحاول اقتحام مرزق للإجلاء، لإن ذلك يتم وفق اتفاقات وحتى الهدنات قد تخترق. أفزعتنا تلك العناوين المقلقة وكان المهدي مضطرباً وأخبرني أنه لن يستطيع التقدم لفنقل. وقبل أن نهم بالرجوع تذكر حديث البائع عن نزوح

العديد من العائلات إلى تراغن. فخطر بباله أن يسأل عن العائلة التي أبحث عنها. وبالفعل كان البائع يعرفهم جيداً ويعرف مكان نزوحهم.

انطلقنا بسرعة وتبعنا سيارة البائع الذي أوصلنا حيث نزحت عائلة مختار، ترجل السائق من السيارة، كان البيت لخال مختار وهو من اتصل مطمئنا بمختار وقت تواجدنا معه. رحبوا بنا واستضافونا فقابلت شقيق مختار وطمأنته عليه وأخبرته أنه قلق جداً عليهم، فبدأ يخبرني رحلة نزوحهم وكَمِّ الأهوال التي مرت عليهم خلال أربعة أيام حتى وصولهم منزل خاله.

محمود شقيق مختار الأصغر هو من رافق أمه لمنزل خاله، أما محمد لم يهن عليه ترك المنزل سهل المنال للصوص والمخربين. لم ترغب الحاجة أم مختار فالنزوح وترك أحد أولادها ولهذا انهارت وفقدت الوعي عند مغادرتها رفقة ابنها. وللأسف محمد لم ينجو من محاولة سرقة المنزل فتلقى رصاصتين في رجليه وتم إسعافه لمدينة سبها ولازال الخبر مخفياً عن أم مختار حتى يتعافى

ويلتحق بهم. أمضينا معهم ساعتين وأودعتهم الأمانة والسلام.

ودعناهم متمنين لهم الأمان، وتمنوا لنا السلامة، تأثر المهدي من حكاية آل مختار والقصص والأهوال التي سمعناها. ولكنه آثر الصمت والإنصات لابتهالات مرنمة تبقيه يقظاً بينما بدا عليه التأثر مما سمعنا، وصلنا سبها مغرباً وكان لدّي طلب أخير ألا وهو زيارة محمد. كان المهدي طيب القلب وقال لا بأس من منّا يدري ماذا سيحدث معه. تيسر أمر الزيارة بوساطة المهدي، وعلمنا أنهم بصدد تحويله لمستشفى معيتيقة لإجراء عملية جراحية لتجبير كسوره. هذا الخبر أسعدني فعلى الأقل يمكنني الاطمئنان عليه طيلة مكوثي في ليبيا.

الليلة الأخيرة لي بالجنوب كانت ملئ بالكوابيس والقلق، لا أدري لما ولكن ربما لتراكم الغصات التي شعرت بها منذ توجهي إليها. كان الأرق يساورني ويمنعني النوم، وفجأة انقلب الهدوء وتشبع بأصوات الرصاص والانفجارات، وكأن الحرب قامت. صراخ صغار المهدي المذعورين، لازال يصم آذاني. جاءني ليطمئنني أن الأمر عابر قائلاً: اعتدنا

على ذلك مشكلة بسيطة بين أسرتين وستنتهي. بالفعل نصف ساعة مرت على ذاك العرض العسكري القصير وانتهى. ليعود الناس لما كانوا عليه وكأن شيئاً لم يكن.

في الصباح توقفنا بالمحطة بعد أن تدبر المهدي أمر شراء البنزين من السوق السوداء، وحملنا معنا آمالاً لشباب في مقتبل العمر يرون بالشمال باب رزق قد حرموا عنه بالجنوب.

مرت الأيام بسرعة وها أنا انتظر بصالة المغادرة بمطار قرطاج متسائلا، ماذا حل بك يا وطني؟ اعتقدت أنني غريب فالغربة، ولكني الآن أعلم أن كل ما عشته أكد لي كم أنا غريبٌ في وطني.

عرس الفقيد

لم أستطع تجهيز البيت بالكامل، ولكن الجناح الأول مع حجرة الضيوف سيكون جاهزا قريباً، وبعدها سنحدد موعد العرس ليكون في أول عطلة مدرسية. ما رأيك؟ هل لديك طلبات أخرى؟

صمتت سالمة حياءً وتركت أمها الخالة عتيقة تخبر ابن أختها عبدالرحمن مباركتها لجهوده ودعواتها لهما بالتوفيق.

تابع عبدالرحمن، أنه يعمل في العطلات على سيارته ويكسب أجرا يكفيه ليفتح بيتاً ويتكفل مادياً بالإنفاق عليه وأن الحال مستور والحمد لله. ارتشف كوب قهوته وترك أمه وأخواته يتدبرن باقي الترتيبات مع العروس، ودع خالته ومخطوبته وغادر.

مرت الأيام بسرعة، جهز عبدالرحمن فيها عش الزوجية. عمل بكد وجد ليكسب اللقمة الحلال من عمله على

سيارته، على الرغم من أنه أحد المنتسبين للجيش. وذلك لأن المؤسسة العسكرية أصابها التلبك بعد أحداث فبراير. ولهذا أغلب المرتبات تتأخر وقد تقطع لتضارب تبعية المؤسسة هل لحكومة الشمال أم الشرق.

حُدد يوم الزفاف ثالث أيام عيد الفطر المبارك، تبقى شهر ونصف وكان عبدالرحمن سعيداً بكل ما يشتريه لعروسه ولبيته.

اتصل به زميله ليبلغه عن مهمة عليهم الالتحاق بها، ومكان الاجتماع قاعدة براك، وبعد هذا الاجتماع سيتحدد من سيتقاضى مستحقاته ومن سيحرمها. ابتهج عبدالرحمن وأخفى الخبر عن عائلته التي أصبحت تخشى عليه بعد الأحداث الاخيرة، ولكنه كان متفائلا أنه سيتقاضى ما يعينه على بدء حياته بدون ديون.

لم يخبر سالمة كذلك ولكنه اتصل بها من القاعدة ليطمئن عليها، وبقدر سعادته شعر بضيق ولهذا أخفى موقعه عنها.

ليلتها استيقظت سالمة على كابوس، فالبداية لم تشأ ان تستذكره فسارعت لتتوضأ وصلت قيام الليل وغادرت حجرتها لتطمئن على أفراد أسرتها، ثم طمأنت نفسها بأنها مجرد أضغاث أحلام لاغير.

انتظرت آذان الفجر، صلت وقبل أن تخلد للنوم مجدداً تفقدت صفحات وسائل التواصل الاجتماعي. كل الصفحات المحلية تتداول خبر قتلى ومفقودين بعد اقتحام قاعدة براك الجوية من قبل قوة مجهولة. انتشرت صور الجثث وأثار الدمار. لمحت اسم قريتها في قوائم أسماء المفقودين والقتلى. شدها الفضول كما القلق، قرأت عدة أسماء بما فيها اسم عبدالرحمن كان ضمن المفقودين. لم تنتبه، أو لربما أرادت أن تتجاهل، أنهت القائمة وكانت تكتم عبرة وتمسح دمعة وتحاول أن تفقد ذاكرتها. لكنها لم تستطع أن تستمر في ذلك كثيراً.

أخذت هاتفها وحاولت عدة مرات الاتصال بعبدالرحمن، وفي كل مرة ترد اسطوانة شبكة الاتصالات بأن هاتفه مغلق.

سقطت مغشياً عليها، وماهي إلا ساعات حتى وصل الخبر الأكيد أنهم عثروا على جثة عبدالرحمن وتعرف عليه أهله بصعوبة ودفن مع رفاقه وقضى شهيدا للواجب.

بلا مأوى

ضاق أسامة ذرعاً بضيق العيش فالجنوب، نزاعات ومناوشات وأزمات. لم تعد القرية مكانا هادئا ليستقر فيه، حيث النزاعات القبلية شكلت بركاناً يحرق كل مقيم. غادر جزء من أهله إلى قرى أكثر أمنا بالجنوب ولكنه لم يتقبل حلاً وسطاً.

أسامة شاب ثلاثيني ورب عائلة مكونة من أربعة أفراد، زوجته فاطمة الحامل في شهرها الرابع وابناؤه الثلاث. محمد ومحسن ومراد. محسن كان يعاني اضطراباً سلوكياً. وشخص بأنه يعاني التوحد. لهذا فكر أن البقاء بالجنوب قد يحرم محسن فرصة تلقي العلاج والتأهيل.

فكر أسامة في بيع كل ما يملك وبدء حياته فالعاصمة، عارض الجميع تلك الفكرة ولكنه أصر وكل همه أن يبدأ محسن علاجه وتستقر فاطمة ويضمن نمو أولاده في بيئة هادئة وملائمة بعيداً عن ضجيج النزاعات العرقية.

باع أسامة بيته الحديث، وباعت زوجته حُلِّيها. بينما تولى قريبه أمر تأمين عمل له، فوفق للحصول على وظيفتين: صباحاً في ورشة، ومساءً في شركة محلية لتوريد البضائع. أما السكن فلقد كان محظوظاً إذ استطاع شراء بيت غير أن البيت ينقصه التشطيبات الأخيرة. وهكذا استقر به الحال في الخلة، معتقداً أن الحظ تبسم له أخيراً. فتراه متفائلا بتحسن حال ابنه محسن بعد تسجيله في مدرسة خاصة بأطفال التوحد، محسن الذي أصبح ينصت لوالديه، يمضي جل وقته فالرسم والألعاب. أما أسامة فلقد كان يجني المال الكافي لتسديد أقساط دراسة محسن وأقساط التشطيبات الأخيرة للمنزل. وتنعموا أشهراً باستقرار وسعادة وأمان.

للأسف الحال لم يدم، بين ليلة وضحاها وصل جيش برقة مشارف طرابلس، وبدأت سمفونية القنابل وزخات الرصاص والصواريخ.

قاوم أسامة وعائلته أياماً تحت خط النار بلا كهرباء ولا ماء. حقيقة كان عقله في مخاض عسير لقرار مصيري، هل يبقى في مأواه الجديد الذي اشتراه بكل ما يملك، أم

هل يضمن سلامة أسرته ويرحل بهم إلى بقعة بعيدة مجدداً ولكن هذه المرة يرحلون بلا زاد وعتاد وكأنهم ينفذون أمرا بالإخلاء.

اتصل به جاره ليخبره أن هناك ساعات هدنة غدا صباحا لإخراج العالقين، لم يعد هناك مجال للشك، فالقرار محسوم. عقد العزم أن يخرج أبناءه بأسرع وقت، وحمل الأساسيات البسيطة وارتحل رفقة أسرته. لم ينظر خلفه رغم الأسى الذي كان يعتريه، كان قلقاً يجري اتصالات ليسأل عن الطرق الأمنة التي يمكن أن يسلكها، لم يكن وحده فالطريق، بل غادر في قافلة مؤلفة من خمس عائلات. سيرجع بعضهم أدراجه للجنوب والبعض سيرجع لمدن أخرى بالشمال.

سلك أسامة طريق الجبل وكان حذراً يراعي زوجته الحامل في شهرها التاسع، وأطفاله الثلاث. وصل قرية من قرى الشاطئ حيث استقرت معظم عائلته بعد نزوحها من مناطق النزاعات العرقية. وها هو أسامة يُقاسي نزوحَين: نزوحه من مسقط رأسه بعد النزاع

العرقي بالجنوب. ونزوحاً آخر بعد النزاع الايديولوجي بالشمال. فقد استقراره وأمانه ثم فقد مدخراته وآماله.

تطوع أحد الشباب لحراسة الحي الذي يسكنه أسامة بالعاصمة، وما هي إلا أيام حتى أتاه خبر اقتناص ذلك الشاب وسرقة ممتلكات مساكن الحي التي لم تتضرر من صواريخ المتصارعين.

نام أسامة ليلتها لكنه من تعاقب الأزمات لم ينهض أبداً، وغادر أسامة الدنيا ليترك أسرته بلا مأوى.

دهاليز السياسة

بالأمس كان رجب يشغل منصباً محترما لدى حكومة الفاتح، أسم له مكانة، يُعيل ويقيل، وله جاذبية تجعل أتباعه يميلون حيث يميل، مقرباً من قيادات الفاتح واعتاد منهم التصالح والتسامح، في فترة بسيطة كوّن ثروته الضخمة من مزايا مستحقة وممنوحة، وكذلك الولاء يجعل الأخطاء غير مفضوحة، رجب رغم جشعه كان كريما مع أقاربه، وبالكاد تجد من لا يُخلد مناقبه، كان له شأن وكانت مكاسبه تجري على اللسان. كان خطيباً مفوهاً ومنظراً معروفاً. ولكن شاء الله أن تعقب فبراير الفاتح. فخشي على نفسه الإفلاس وأخذ يدرس هوى الغالب من الناس.

رجحت كفة فبراير، وقبل ذلك خلال تأرجحها لم يتوقف رجب عن الدفاع عن عشه بكل سبيل، وكذلك لم يتوقف عن التحشيد والتبجيل، حتى وقعت الفأس

بالرأس. حينها أدرك رجب أن الفاتح أصبح محض خيال، ولم يعد مصدراً للعز والمال.

تقوقع على نفسه أيام وشهور، وأخذ على عاتقه السكون لمعرفة مآل الأمور، وفي خضم المعمعة، لم يَرَ رجب بأس في اقتحام الصومعة، صومعة السياسة.

ارتدى ثوباً جديد، وأصبح ينادي بحق الفقيد والشهيد. وما هي إلا مدة حتى استرجع رجب الهيلمان والسدة. شعبية كبيرة أرجعته لدهاليز السياسة غانماً.

ركب رجب موجة فبراير كما تزعم حركة الفاتح، ووجد حاشية تمجده بحلته الجديدة كما قدسته بثوبه القديم. وكان مثالا حياً أن من يدخل دهاليز السياسة لن يستطيع عنها فراراً، وكل يرى أنه رسول الشعب المختار.

كبوة جواد

نشأ عمر في قرية تتمسك بالدين وتحافظ على العادات والتقاليد بشكل كبير، تلقى تعليمه الأساسي في قريته ولأنه كان نجيباً شجعه والده على الاستمرار في التعليم وكأنه قد علم أن له مستقبلاً كبيراً.

صدقت توقعات والد عمر، فلقد كانت ميوله من الصغر تصب على الشرع والتشريع وأصبح مستشاراً نزيهاً معروفاً، تدرج فالمناصب بجدارة واستحقاق. ولم تكن فرص العمل متاحة للعمل بمنصبه في قريته ولكن كان دوماً يتم تعيينه مندوباً في مدن مجاورة ولربما بعيدة.

كان يحرص على العمل الدؤوب والكسب الحلال ليرى بركة ذلك في أولاده تماماً كحرص والده على تربية أبنائه على الكسب الطيب. لم يكن عمر راضياً عن الحكومة السابقة تماماً، ورغم ذلك كان يرى في موالاتها بما يرضي الله أمر مقدس و كان معروفاً بمذكرات الاحتجاج متى وقعت عينيه على أي خطأ أو مفسدة. حتى صار معروفاً

لدى الجميع بالصالح عمر. وكان يسهم في تحسين الخدمات في قريته بشكل تطوعي. خاصة بعد أن فتح الله لعمر أبواب الرزق والخير. باندلاع النزاع السياسي ترك عمر منزله رفقة أسرته بالعاصمة ورجع بحثاً عن الهدوء واستقر بقريته حيث نشأ، مر أسبوع كامل منذ عودته، كان يراقب كل الأحداث بأسى على كل روح تفقد، ولم يكن يدري عن نشوء حركة تدعم الثورة الحديثة، شكلتها زمرة من المراهقين والشباب قادهم الحماس وكانوا تُبَعاً بلا وعي ولا تمييز. اقتحموا بيت الصالح عمر واقتادوه زاعمين أنه أحد رؤوس النظام السابق وزج به في مقر تجمعهم ولم يخلو الأمر من الإهانة والضرب والشتائم الموجهة للصالح عمر.

لم تمر سويعات حتى علم أهالي منتسبي الحركة الجديدة باقتيادهم الصالح عمر وتعنيفه، تأسفوا وتحركوا لتخليص الصالح عمر من قبضة تلك الزمرة.

كان مشهداً مؤلماً، الصالح عمر وعليه آثار التعنيف بالكاد تتعرف على ملامحه، يحيط به الأهالي متأسفين لما حصل وماذا سيفيد الأسف الآن؟ وهذا أثار غضب أبنائه

الشباب ولولا تدخل الجد لإيقافهم لنشبت داخل القرية مشاجرة مسلحة لا تُحمد عُقْباها.

أما الصالح عمر آثر البقاء بمسقط رأسه ليعلم أبناءه أن لكل جواد كبوة، عليه أن يتعافى منها سريعاً، وأن الأرض لمن ينبت بها ويصمد وعليهم ألا يسمحوا لأي كان أن يقتلع جذورهم لسوء عشرته.

الثروة السائبة

لم تدرك زهرة قصد زوجها، إذ لمَّح لها أن هناك باب رزق إذا عثر عليه سينتشلهم من الفقر،

زهرة ذات الأصول الليبية هاجر أجدادها لتشاد وعادت أسرتها لتنشأ بدون أوراق ثبوتية وتتزوج ابن عمها ثم لتدرج أسرتها ضمن العائدين.

كانت ظروفهم صعبة جداً، ولكن أخباراً متداولة حول جبل الذهب جعله مشوشاً يحاول عدم التفكير فالموضوع ولكن الحال يعيده للتفكير فيه. رجع أحد المروجين لجبل الذهب من رحلته بعد غياب طويل فذهب عيسى ليستفهم عن كنز علي بابا.

لا أخفي عليك يا عيسى إن الوضع مخيف ولكنه باب رزق بالفعل، هناك مجموعات منظمة ولكل مجموعة قائد معروف، ولكل مجموعة معدات وقوى عاملة، ولا صوت هناك إلا للقوي، ربما تكون غلة الذهب قليلة في

بعض الأيام ولكن على الأقل بإمكانك الحصول على يوميتك.

ولكن إياك واختلاق المشاكل أو عصيان الأوامر لأنك ستجد نفسك في ورطة لا مخرج منها. وإن كنت جاداً فأنا سأعود لمعسكر التنقيب بعد أسبوع ولربما عثرنا معاً على ما يغنينا فنرجع لنبدأ حياة مرهفة بعيدة عن أي تهديد.

وبعد أسبوع عيسى وزكريا يغادران الحي القاطنين فيه، يبدؤون بأمل رحلة طويلة إلى أقصى الجنوب الليبي، هناك حيث سلاسل الجبال التي تكنز تحتها المعادن الثمينة والتي فتح عليها الباب على مصراعيه بعد أحداث فبراير، تلك الكنوز التي تختلس علناَ بدون تقنين، وأحياناً تطالها أيادٍ أجنبية بدون ترخيص.

وصل عيسى وزكريا موقع التنقيب، وفوراً قدم زكريا عيسى لقائد المجموعة والذي أطلعه على المعلومات والمطلوب، الأمانة والسرية، والإخلاص والولاء. بدأ عيسى عمله عرف أسرار المهنة، الطرق والأدلة، كوّن علاقات حميدة مع العمال والقبائل المسيطرة على المنطقة

الجبلية، وشهد خلال شهر بعض المناوشات بين المجموعات. أحياناً تتوقف قبل أن تتحول الاشتباكات لمسلحة، وأحيانا يحتدم الصراع وينجم عنه ضحايا.

بعد شهر أخذ عيسى ما جمعه من يوميته وقصد الاطمئنان على زوجته، كان قد جمع مبلغاً لم يكن يحلم به من قبل، ولكن طبيعة عيسى الهادئة جعلته ينفر من تلك البيئة المحفوفة بالمخاطر.

لهذا كان يفكر بطريقة يخفي فيها الذهب عن مجموعة الحراسة، فالعمال ما هم إلا عبيد مسلوبي الحرية بقوة السلاح. رجع بعد انقضاء الشهر لمخيم التنقيب وكان يعمل بشكل دؤوب، يعمل لقاء يوميته بجد ومثابرة لكن لم يكن الحظ دوماً حليفه، أخبره زكريا أنه مل من العمل بشكل يومي ويجب عليهم أن يتحدوا، زكريا كانت له قرابة مع عيسى وفي كل الأحوال لم يكن سبب ليشك فيه لذلك أخبره أنه سيكون معه في أي عمل يقوم به وبالفعل خططا للعمل معا وأن يدفنا القطع الكبيرة إلى أن تسمح لهم الفرصة بتهريب ما جمعاه، ولم يمض الكثير من الوقت حتى جاءت مجموعة جديدة تريد أن تستولي على

الموقع. نبه زكريا عيسى أن لا فرصة أفضل من هذه. المجموعة الجديدة كانت من أهالي المنطقة واستعانوا بمقربين من دول الجوار، أعطوا المجموعة مهلة الصباح لكي يغادروا، أبى قائد المجموعة المغادرة بالبداية ولكن ما إن رأى استعدادات المجموعة الجديدة إلا وقرر الانسحاب بهدف العودة عند تجهيز قوة مساندة. أبلغ قائد المجموعة الجميع أن يستعدوا لإخلاء الموقع فتقاسم زكريا وعيسى كنزهم وأخفوه في ثيابهم ليغادروا. كانت عملية الإخلاء سلسة وهادئة ونجح عيسى وزكريا فالظفر بكنز ورأس مال لمشروع أقل خطورة من التنقيب عن الذهب.

وهكذا وقعت مناجم الذهب تحت سيطرة قوة من خارج الحدود، لتستمر حرب الخفاء في نهب الثروة السائبة.

هَلِّي أراك

علي ويوسف شابين جمعتهما مقاعد الدراسة صغاراً في مدينة سرت، وامتدت الزمالة لحلقات تحفيظ القرآن حتى توطدت صداقة جميلة وأخوة عميقة. لم تفرقهما الدنيا ومشاغلها، حتى بانتقال علي للشرق مسقط رأسه. كانا شديدا الحرص على استمرار التواصل بينهما والمحافظة على اللقاءات الشهرية.

باندلاع فبراير كان لكل منهما توجهاً سياسيا مختلفاً، ورغم ذلك اتفقا على التواصل بغرض الاطمئنان وألا يخوضا في أخبار السياسة. استمر الحال كذلك وإن تجنبا التواصل في لحظات احتدام الاشتباكات العنيفة ووقوع ضحايا بأعداد كبيرة وذلك لئلا يُخَيل لأحدهما أن الآخر اتصل بغية التشمت.

يوسف كان مؤيداً للفاتح وانخرط بالعمل التطوعي، يقضي جُل ساعات يومه يبحث عن الغداء والمأوى

للنازحين. أما علي فلقد كان معارضاً للفاتح وانخرط بالعمل العسكري.

بعد حسم الجدل بين فبراير والفاتح استمر كل منهما بعمله التطوعي. دأب يوسف على تقديم المساعدات لكل محتاج وانخرط للاشتراك مع أكثر من مؤسسة خيرية. بينما استمر علي في تلقي التدريبات العسكرية والتعبئة المعنوية. وبقي باب التواصل مفتوحاً بينهما حتى مع اختلاف الآراء. شيئاً فشيء أخذ علي يتبنى أفكاراً شاذة ويتعصب لفتاوى غريبة وما سهل وصولها وتبنيها الانفتاح على الجماعات المقاتلة والتنظيمات المختلفة في شتى البلدان، بدأ يكره نفسه لمجرد أنه هوى إلى ذلك العمق الشائك من التفكير في مسائل ما كانت تنبغي له. استمر بقلقه وشكوكه ومخاوفه حتى تيقن أنه على صواب باتباع ذلك التيار. كان علي يبلي بلاءً حسناً باتباعه أوامر قادته ما جعل قادته يكلفونه بمهام قتالية عدة.

تدهور حال البلد بشكل عام ولا يكاد يحل نزاع إلا وافتعل غيره، وقد مر ما يقارب العامين منذ آخر تواصل بين يوسف وعلي. حاول يوسف التواصل مع علي وعلي

كان يرفض الرد على مكالماته أو رسائله. فعلم يوسف أن علي لم يعد يريد التواصل معه فصرف جل اهتمامه على المشاريع الشبابية والعمل التطوعي واعتبر أن الفاتح وفبراير وغيرها تيارات متعاكسة وأنه إن أراد السلامة فما عليه سوى تحييد نفسه عن فكرة التعصب لأي منهما والاهتمام بنشر السلام بين سكان مدينته.

وفي أحد أيام 2016 اقتحمت قوة عسكرية تحمل أفكارا دينية مدينة سرت. وعاثوا في الأرض فساداً. يوسف شغله حال الكثير من الأرامل والأيتام وكان يحاول إمدادهم بالمؤونة ويوزعها بنفسه، أما تلك القوة لم تشغله كثيراً كان يريد الحفاظ على حياده وتجنب الانجراف بأي تيار. سيطرت تلك القوة على المدينة وجميع مراكزها الحيوية ونصبت نقاط تفتيش وفرضت الخضوع لهم. ابتعد يوسف عن كل ما قد يجلب له عداء الغازين الجديد لمدينته، واستمر بعمله التطوعي. وفي أحد الأيام أوقفت إحدى نقاط التفتيش سيارته، وبعد خضوعه للتفتيش اكتشف المسلحون وجود تموين يكفي

مجموعة ليست صغيرة بسيارته. تمت محاكمته بتهمة الخيانة، وعقوبة الخيانة الإعدام.

علي هو القائد على تلك المجموعة، عندما تم إشعاره بما في سيارة يوسف أشار لإمكانية أنه يمد القوات الحكومية بالمؤن ليخلق أزمة بالمدينة. حاول أقاربه فديته ولكن لا فدية للخائن باعتقادهم، ستنفذ العقوبة صباحاً.

علي جالس على عرش تلك المجموعة، يبارك القصاص، ويوسف جاثٍ على ركبتيه، وقعت عينا يوسف علي عيني علي، إنه هو، تلك مزحة، بالتأكيد مزحة، ولكن لما لم ينه المشهد.

يوسف وآخرون ينتظرون حكم الإعدام وإذ بيوسف ينهار، كفى! كفى تمثيلاً. وإذ به يهوي على الأرض من شدة اللكمة التي تلقاها ثم يجلس مجددا مكانه، وإذ به يصرخ مجددا محدقاً بعيني علي الملثم هلِّي انظر إليك.

لقد فات الأوان يا يوسف فعلي لم يعد علي، وعصفت الحسرة بروح يوسف قبل أن تفيض روحه أن علي هو قاتله.

حدود الغنى

سلع غذائية، أثاث، مفروشات، وقود، سيارات، مخدرات، وبشر كل ذلك يمكن تهريبه عبر الحدود. بإمكانك السفر بعبوة نحاس وتحمل من هناك المهاجرين لترجع بهم. فقط عليك حفظ مسارك لكيلا تغرق في الصحراء. هكذا كان آدم يُسوِّقُ التهريب لبركة.

اقتنع بركة بسهولة، فآدم تمكن من شراء سيارتي دفع رباعي من أرباح التهريب، ويريد آدم أن يكون بركة عوناً له في تجارته المستقبلية. ولما لا، ففرص العمل تكاد تكون معدومة في خضم تدهور الأحوال السياسية. اتفق بركة وآدم على نقل سلع غذائية كانت قد وفرتها إحدى المنظمات ضمن برنامج الإغاثة الدولي. تحصل عليها آدم بشكل غير مشروع ويريد أن يتاجر بها خارج الحدود الجنوبية.

اقترب موعد الانطلاق ودّع كلا الشابين أسرتيهما، وحزمَا أمتعتهما. مئات الكيلومترات سيمضونها في عراء

الصحراء القاحل. حيث لا بقاء إلا للصامدين أمام وحشيتها. هناك حيث لا ماء إلا ما حملوه معهم ولا غداء إلا ما تزودوا به.

كانت الرحلة شاقة على بركة فهي رحلته الأولى، جل مخاوفه أن يتيه في الصحراء لهذا كان حريصاً ألا يضيع آدم عن ناظريه. وصلا لوجهتهما ورأى رأي العين كيف يمكن لأشياء بسيطة بعد عناء مشوار قاحل أن تصبح بوابة غنى. تجولا في سوق القرية الحدودية ومن تم ذهب آدم لتفقد السمسار الذي يتعامل معه لنقل من يريد دخول ليبيا عبر الصحراء. كانت البشارة التي يحملها آدم للسمسار أن هناك إمكانية لنقل عدد أكبر فطلب السمسار إمهاله يوما واحداً.

بعد يوم امتلأت السيارتين بعتاد بالي وتم ملء خزانات المياه اللازمة لعبور الصحراء، وفي موعد الانطلاق تسابق كل من دفع تذكرة المجازفة للصعود في صندوق عربة السيارة، يفترشون أمتعتهم محاولين الاتزان. كأكوام تراكموا على متنها معلقين آمالهم بوجهة غير مأمونة.

مخاطر عدة محتملة سيتعرضون لها، ولكن من غير المحتمل أن تعترضهم دورية حدودية، وحتى مع الاحتمال الضعيف يمكنهم الخروج من هكذا مأزق بالتنازل عن بعض المال كرشوة. ولهذا لم يكن هذا ما يشغل بال بركة. يختلس نظرات من مرآة سيارته، يروّعه ذلك المنظر البائس. كصخور متحجرة أمام الرياح الرملية والشمس الحارقة، يتمسك المهاجرون بمواقعهم على اختلاف أحجامهم. تلتحف تلك السيدة بقطعة قماش تلفها على جدعها لتثبت صغيرها. وتسندها سيدة من ورائها تحميها من السقوط. يتعالى صراخ الطفل جائعاً فيتذكر طفله فيوقف السيارة بحجة تفقد الإطارات. يتوقف آدم ويرجع ليسأله ما به هل تعطلت السيارة أم نفذ الوقود. يطمئن بركة آدم ويتابع السير بعد أن اطمأن أن الطفل اكتفى لبناً.

خلف مقوده مركزاً على دربه وخيالات القابعين على متن الأمتعة المكومة في عربة السيارة تراوده ماذا لو ماتوا هل سأحمل أوزارهم. يتردد صدى آدم على مسامعه، كل شيء غداء دواء بشر، أثاث، مفروشات ومخدرات. تأمل

الروح التي يحاول مراعاتها وطاردته أشباح شباب فقدو عقولهم من تعاطي المخدرات. يسير بسيارته ويطالع من خلفه الوجوه البائسة المكفهرة على أكوام العتاد البالي. تلفح رؤوسهم الشمس كأنهم خشب مهيئة للاحتراق بأجسامهم الهزيلة ولربما المريضة، وتنحت تفاصيلهم ذرات الرمال المتطايرة بقسوة وكأنهم تماثيل. وينتهي المشهد بذلك الغبار الذي يغطي رموشهم وتقاسيمهم، وكأنه ستار أُسدل على مشهد مرعب يتأمل نوراً قادماً من الشمال.

كانت الرحلة مع طولها مكتظة بكوابيس اليقظة، ما قام به بركة اليوم شيء معتاد وإن اختلفت السلع وكلها ثمينة وفرصة غنى. كُثرٌ هم من يمتهنون هذه المهنة، ولكن الغصة التي أصابت بركة فريدة، فقليلٌ من تهتز عواطفه كبركة ويتناسى ملء الجيوب.

وأخيراً وصلت السيارتين ومن على متنهما بسلام منهكين بعد أيام قضوها في قلب الصحراء الحارق. وجد بركة فرصة كسب لكنه متأكد أنها ولابد منزوعة البركة. فما كان منه بمجرد وصوله إلا إعلام آدم أنه يوافق أن

الحدود بوابات غنى ولكني أرى نفسي قد أدركت حدود الغنى.

ستستمر شبكات التهريب طالما أنهم يرون أن الحدود هي حدود الغنى، أما بركة تيقن أنه إن تورط في عملية تهريب أخرى فسينجرف إلى تيار لا حدود فيه للكسب والغنى.

لك أشتاق

ها قد مر يا حبيبي عشرة أعوام. لازلت أعتني بشجرة الزيتون التي اشتريتها وأسميتها باسمي، ولا زلت أرتب غرفتك كل صباح. لا أدري كيف تعمها الفوضى كل يوم، ربما لأنني هجرت كل ما فالبيت لأبقى معك. أو لربما لأنك تزورني بدون أن ألحظك، ها أنا أعيش وحدتي التي تملؤها. أشعر بك تعينني في كل أمر، ولا أعلم ما الأمر، لما استسلمت وتركتني هكذا، أعلم أنهم كانوا جبناء، ليتهم أخذوا ما أرادوه وتركوك لي، فأنا إليك أشتاق.

منذ وفاة والدك نذرت حياتي لك، كنت حينها في أحشائي، وكنت معي في كل لحظة. اسميتك مؤنس لأنني أعلم أن الأنس لن يجد إليّ سبيلاً إلا معك. وحتى أوقات انشغالي أنت من تدفعني لأنتهي سريعاً فألقاك. أعددت الطعام الذي تحب، وجهزت المائدة. أخبرتني أن لا أقلق فلم يتبقى سوى خمسة عشر دقيقة لتصل. لا أدري لما راودني القلق، ولا أعلم ما الخطب ولكنني عزيته إلى الخمول

الذي كبلني منذ أن توظفت وأخدت مني عهداً أن أرتاح لتعوضني براحة عن كل تعب قاسيته في شبابي.

مرت الدقائق بسرعة وأشعلت التلفاز لنتابع الأخبار. لكن الألم عاودني قلت لنفسي حينها يا عجوز تحركي وافتحي الباب ستجدينه أمامك. سمعت صوت رنة الهاتف التي خصصتها لك، عدت لشبابي حينها، ركضت لأصل لهاتفي بسرعة.

نعم يا أُنسي، لما تأخرت.

سيدتي كيف حالك، اعذريني لكن الشاب أشار إلينا أن نتصل بك ليطمئنك على نفسه فلقد تعرض لحادث بسيط.

لم أنطق بأي كلمة، فعاود المتصل مخاطبتي سيدتي هل تسمعينني؟ أدركت حينها أن مؤنساً يحتاج قوتي الضعيفة.

نعم ناوله الهاتف، مؤنس نعم. نعم يا مؤنس ماذا حدث؟

لا إجابة. سيدتي الشاب أصيب إصابة طفيفة ويتم حالياً تنظيف جرحه البسيط. كان يوّد إخبارك بنفسه أنه بخير وسيتأخر قليلا، لا تقلقي تم إدخاله لحجرة معقمة لتنظيف جرحه وسيحادثك عندما يخرج منها.

لم أصدق فأجبته يا ولدي، مؤنس فلذة كبدي وأعلم أنه ليس بخير فأين هو لآتيه. حاول تهدئتي إنه بخير، وإن كنت قريبة تعالي لتشاهدي ذاك بنفسك، سيدتي تعالي لمستشفى شارع الزاوية.

شغلت محرك سيارتي التي أخبرتني أنها أدت ما عليها ولكنك لن تبيعها أبداً، حتى السيارة تعاطفت معي واشتغلت فوراً. لا أدري أي الطرق سلكت ولكن بالرغم من أن المسافة من البيت كانت طويلة وَصلتُ بسرعة.

كان المستشفى يعج بالمراجعين فسألت الاستعلامات: مؤنس سالم، تم إسعافه إليكم من حادث سيارة. بدأ الموظف قلقاً، وقال لي متفاجئاً حادث سيارة! أَمُتأكدة. أَجبت، نعم. رد بلطف، انتظري ثُم لوح لممرضة لتأتي. وبالفعل جاءت إليه فأخبرها أن تساعده في البحث عن

اسم مؤنسي. وكانوا يتبادلون نظرات وكأن حواراً جانبياً صامتاً دار بينهم.

مؤنس سالم، مؤنس سالم، آه عرفت أين هو. تركت الموظف وسارت معي لتدلني على مكانه، مشينا خطوات ثم أوقفتني.

سيدتي تماسكي، مؤنس أصيب برصاصة أثناء سرقة سيارته بعد إجباره على التوقف في نقطة تفتيش وهمية. ماذا؟ ماذا تقولين؟ أمسكت بذراعها وكدت أسقط من هول الخبر وصحت بها أين هو؟

لا أعلم ماذا كانت تقول لتواسيني حتى وصلنا حجرة الطوارئ. صخب وجلبة يركضون من حولي ويصرخون بطلباتهم. هنا ممنوع الدخول، سيدتي سيخرج الطبيب فور انتهائه.

شيءٌ ما يُخبرني أنه ليس بخير، لكنني استجمعت كُل الأمل لأُبْقيَ نفسي هادئة. الألم بقلبي يزيد ويتضاءل الأمل حتى خرج الطبيب المعالج ، لم أتكلم لكن الممرضة قالت له إنها أمّه.

أراد المضي ثم تراجع وجاءني ليخبرني أنك انتقلت لرحمة الله.

أَ اشتقت لأبيك لهذا الحد لتتركني وحيدة؟ أَلم يعلم قاتلك أَنك وَحيدي، هل أصب غضبي على الثورة التي أخبرتني أنها ستنتشل البلد من الدمار، ولربما انتشلته؛ وها هي أفقدته الأمان وقد عمه الفساد والدمار وأفقدني إياك، وأنا لك أشتاق.

بلا جواز

يُقلب جَوادُ المُستندات التي جَهزها، كُلُ شيء جاهز باستثناء حَجْز المَوعد. يَتْرُكها في ملف على مكتبه ويَتجه نحو المرآة ليُطالع تَفَاصيلُ وَجهه. يرى الشَيب قَدْ كَسَى لحْيَتَه الغَزيرَة، فَيُتَمْتم: أُوهْ لَابَأْس! رُبَما عَلَيَّ تَخفيفها قبلَ موعد التصوير. ثُم تقع عينيه على مُقَدمة الشَعر وإذ بِخُصلاتٍ بيضاء تنعكس على وجه المرآة فيبتسم محدثاً نفسه مرة أخرى: تلك سنحلقها وأنت ما أَنَا فَاعلٌ بك! يَتغزل بابتسامته ووَسامته، ثُم يُجرب زَوايا ونظرات وابتسامات مختلفة. ويحملق بانعكاس صورته مجدداً مخاطباً إياها، يا لك من مغرور يا جواد تأكد من توفر موعد ثم تمرن على التقاط الصورة.

تحصل جواد من عمله على دورة تدريبية في إحدى الدول الشقيقة وعليه استخراج جواز سفر في أسرع وقت، لطالما عمل بجد لينال تلك المكافأة ولكنه اليوم أمام تحدي مع الزمن والنظام. لحسن حظه تحصل على

خطاب من العمل لتسهيل الإجراءات لعله يلتحق بتسجيل المنتسبين قبل فوات الأوان.

حسناً، سأبحث عن موعد متاح في منظومة التسجيل، ماذا؟ المنظومة لا تعمل! يُمسك الهاتف ويتصل بخالد صديقه.

جواد: خالد منظومة التسجيل للجوازات لا تعمل.

خالد: ماذا دهاك يا جواد؟ الحجوزات لم تعد تُجْرَى بالحجز المُسبق وإنما بالحضور الشخصي المباشر.

جواد: أتقصد أنَّ علي فقط الذهاب لمقر الجوازات وهم سيحددون موعد التصوير.

خالد: نعم أنت وحظك.

جواد: حسناً سأذهب غداً إن شاء الله.

منذ ساعات الصباح الأولى تجهز جواد وخرج حاملاً مستنداته، توجه لمركز الجوازات القريب، وما إن وصل حتى تيقن أنه لن يُوَفق اليوم. اكتظ عدد كبير من المراجعين بساحة المبنى، لكنه تمكن من سؤال أحد

الموظفين والذي أعلمه أنه إن سجل اليوم لربما تمكن بعد أسبوعين من التصوير.

أسبوعان!، لا يمكنني الانتظار لأسبوعين.

توجه للعديد من مراكز الجوازات وسجل اسمه ولم يتمكن من إيجاد موعد قريب. سافر مئات الكيلومترات لمدينة نائية، وفور وصوله استعلم عن إجراءات استخراج جواز سفر، لحسن حظه كان المركز خالياً إلا من عدد قليلٍ جداً من المراجعين.

سَلم جواد مستنداته وانطلق عائداً من حيث جاء بعد أن تحصل على موعد لأخذ صورة وتقديم أوراقه الثبوتية ليتم تجميعها في جوازٍ يجيز له السفر خارج حدود بلده.

رجع للبيت سعيداً وبدأ تدريباته على الابتسامة والنظرة الأجمل لجواز سيبقى معه عشر سنوات ولربما أكثر. بعد يومين ارتدى جواد قميصاً جديداً ليناسب مظهره الجديد بعد حلقه لحيته وسافر جواد مجدداً لمركز الجوازات، ووأخيراً التقطت له الصورة التي ترضيه، ورجع

ليُبشر زملاءَ العمل أَنه وأخيراً سيتحصل على جواز سفر ويلتحق معهم بالدورة التدريبية.

مَر الأسبوعين الذين كانا يتوقع استلامه الجواز خلالهما بسرعة، مرت كذلك الست أسابيع مهلة تقديم مستندات المتدربين، ثم بدأ الاحباط يحاصره. لتفانيه فالعمل قرر المدير تقديم إجراءات استثنائية له بحيث قدمت بياناته باستثناء جواز السفر وستكون رحلته بحجوزات استثنائية.

سافر ليستفسر عن سبب تأخر طبع الجواز كل ذاك الوقت، لم يتلقى تبريراً مقنعاً ولكنه تلقى وعوداً مطمئنة.

مرت آخر مهلة لجواد ولم يتحصل جواد على جوازه، حينها تَيقن أنه لن يتمكن من الالتحاق بالبرنامج التدريبي. وتم شطب اسمه لأنه بلا جواز.

استسلم جواد لمزاج سَيء لمدة أشهر، وفي يوم من الأيام تلقى إشعاراً بضرورة الحضور لاستلام جوازه، سافر بنفس مكتئبة وجلس ينتظر دوره بملل. وما هي إلا دقائق حتى حضر شيخ يستند على عكازه، جلس مقابلاً لجواد

بعد أن ألقى السلام. كان مستعجلاً وقلقاً ولكن الاحباط قتل الفضول بنفس جواد فلم يبادر بالتحدث معه، غير أن الشيخ كان يصدح بدعاء بين الفينة والأخرى حتى بادره أحد المراجعين: إن شاء الله لا بأس يا عم!

وكأنه فتح صمام أمان فؤاد الشيخ، فسرد عليهم أوجاعه. الشيخ توفي له ابنه الشاب في الحرب، وتوفت زوجته حزناً على ولدها، ولم يتبقى له سوى ولدين أُصيبا بحادث سير إصابة خطيرة وتوفي أحدهما فوراً بينما الآخر تم ترحيله لتلقي العلاج وبقي الشيخ يخوض معركة استخراج جواز سفر ليلحق بابنه المصاب. عندها أدرك جواد أن فوات الدورة كان مصاباً هيناً، ومهما كانت الخسارة التي تسبب فيها فقدان الجواز في حالته لن يكون بمرارة فراق الأحبة.

قوارب الشمال

من قرية نائية أقصى جنوب السودان هاجر والدا إسماعيل، ليولد في قرية نائية جنوب ليبيا. نشأ إسماعيل في أسرة تسعى لحياة أمنة مستقرة وكريمة. عمل والده حداداً في أحد الورش، بينما عملت زوجته كبائعة متجولة، تشتري البضائع بسعر الجملة وتبيع البضائع بشكل متفرق لتعين زوجها على نوائب الدهر. تعلم إسماعيل حرفة الحدادة من والده وبرع فيها منذ نعومة أظفاره. كما سنحت له الفرصة للتعليم الابتدائي ولم يكمل دراسته ليعين عائلته، ولكنه التحق بحلقات تحفيظ القرآن الكريم مع أقرانه الليبيين.

كأي طفل لازال إسماعيل يتوق للّعب، وينتهز الفرصة ليلهو مع فتية الحي بكرة القدم. كوّن صداقات معهم ليعيش طفولة سعيدة رغم الفقر والحاجة حتى قامت أحداث فبراير.

تدهورت أحوال العائلة الاقتصادية فأصبحوا يعتمدون بشكل أساسي على تبرعات الأسر التي يعرفونها. أغلقت الورشة أبوابها واضطر والد إسماعيل للبحث عن أي عمل، فعمل حَمّالاً، رَاعياً، كما عمل في مجال الزراعة. كان الوضع الاقتصادي للبلد غير مستقر ما يجعل المشاريع والاستعانة بعمال مقيداً. بعد إعلان تحرير طرابلس تحسن الوضع قليلاً، وبدأ أهل الجنوب بشكل عام هجرة إلى الشمال الليبي حيث فرص العمل الأوفر، والخدمات الصحية الأفضل، والجو المناخي الألطف.

ارتحل والد إسماعيل حيث يرتحل الليبيون الجنوبيين، ووُفق بالحصول على فرصة عمل بسيطة براتب يكفي عائلته لتتنعم بحياة جيدة. يعمل والد إسماعيل ويرسل الأموال لزوجته لتتدبر أمر الانفاق، وكان يسعى للحصول على عمل مسائي لربما يذخر منه مالاً يكفيه لاستجلاب أسرته للإقامة معه بالشمال. بعد شهرين من البحث وجد فرصة عمل في ورشة للحدادة وهي مهنته الأساسية.

أُعجب رَبُّ العمل بتفانيه واتقانه لعمله ولهذا كان سَخياً معه، بعد سنة من العمل الشاق رجع والد إسماعيل لأسرته ليساعدهم في الانتقال.

سُرَّ إسماعيل كثيراً بالمناخ الجديد، كان مُجيداً للهجة أهل الجنوب وبدأ يلاحظ الاختلاف بينها وبين اللهجة الغرباوية، أمَّا حلقات القرآن التي لم يجد لها وقتاً حيث انتقل كانت أكثر ما يحن إليها ويفتقدها في موطنه الجنوبِّي. ولم يمضي الكثير من الوقت حتى تحصل والده على عملٍ له في أحد المحال التجارية. وجد إسماعيل العمل الجديد مريحاً ما جعله سعيداً ومستبشراً بمقره الجديد. تعرفت العائلة على عائلات سودانية أخرى وهذا ما خلق جو جميلاً في مكان جديد لم يألفوه. ضيق العيش شكّل أكبر هم للعائلة بالجنوب، وعدم الاستقرار الأمني بالشمال شكّل خطراً كبيراً جداً يهدد حياتهم. حرب المليشيات المتكررة، والصراع السياسي والعسكري الأخير بين الشمال والشرق أفقد عائلة إسماعيل ربّ الأسرة الذي قَضي في أحد الاشتباكات بشطايا صاروخ أعمى وقع بالقرب من ورشة الحدادة.

مرت 7 سنوات على تلك الحادثة. إسماعيل لم يعد طفلاً بعد اليوم فهو في الخامسة عشر من عمره، وكأن تلك السنوات كانت كافية ليصبح رجلاً ويتحمل مسؤولية العائلة: أُمّه الأرملة وإخوته الأربعة. أصبح له رأي مسموع لدى أمّه، فأشار عليها أن ينتقلوا للشمال الغربي هناك حيث الساحل الساحر. اقتنعت أُمّه لأن أغلب الجالية أصبحت تُفكر في ما هو أبعد من ليبيا.

جمع والده قبل وفاته مبلغاً لا بأس به كضمان لعائلته. وعمل إسماعيل مكنه من تجميع مبلغ أضافه لمدخرات العائلة. أما والدته عملت في تنظيف البيوت لقاء أجر زهيد وطعام لعائلتها.

استمر هذا الحال لأشهر حتى أن أصدقاء والده من جالية بلده الأُم كانوا يدعمونه بالمال والنصح كمجتمع مترابط لينالوا مرادهم جميعا. تمكن الجميع من توفير المال المطلوب 500 دولار لكل فرد بما في ذلك الفتية الصغار.

ظل إسماعيل يحمل هماً كبيراً، وحزناً شديداً. حزن لفراق بلد كبُر فيه ويحمل في ثراه جسد والده، وهماً وخوفاً مما سيؤول إليه أمرهم. كان يخفي دموعه حتى يخيم الليل ليغسل بها آلام ومشاق النهار. تلقى أمراً من صديق والده بأن ينفذ أوامره بدقه. كانت الأوامر ان يتجهز الجميع عصراً فيما يشبه المعسكر. كأسرى حرب تم تجمع عشرات المهاجرين في مزرعة نائية، أُسروا هناك لعشر أيام، كل يوم يتم إخبارهم حجة جديدة لعدم ترحيلهم بحراً للجنوب الأوروبي.

نقطة التجميع تلك كانت أشبه بسجون المعتقلات، كل الخدمات كانت في أدنى مستوى وبالأصح لا تصح للاستخدام الآدمي، توزع عليهم بعض الأطعمة الخفيفة والتي بالكاد تبقيهم أحياء. لم يكن مسموحاً لهم بالحديث بصوت مرتفع بحجة عدم افتضاح أمرهم. وهذا ما جعلهم يميلون للهدوء لإنجاح عملية ترحيلهم لجنّة الأحلام أوروبا.

بعد انقضاء عشر أيام في معتقل المزرعة تم ترحيلهم ليلاً سيراً على الأقدام لنقطة تجميع على ساحل المتوسط.

انتظموا في طوابير كسلاسل بشرية يتبعون الدليل الليبي. وما إن وصلوا الساحل حتى وجدوا قوارب صغيرة لنقلهم للمركب الذي سيقودهم لوجهتهم. استمر نقلهم للمركب بالقوارب الصغيرة لساعات ليكتشفوا أن أعداد من في المركب ازدادت حمولته عن المتوقع. أراد بعضهم العزوف عن مواصلة الرحلة فتم إجباره بقوة السلاح على تنفيذ الأمر. وهذا ما يبرر عدم سامحهم للمهاجرين بنقل أمتعة معهم.

قبل بزوغ الفجر ينطلق المركب محملاً بعشرات الأحلام والآمال. انطلق المركب ولم يكن معهم ربّاناً ليُسير المركب، اكتفى قائد المجموعة بتعليمهم بعض الأساسيات. أسياسيات للتحكم في المركب وتعليمات لكيفية طلب المساعدة عند الوصول لأي دورية حراسة. تم تطمينهم أن الوقود كافي لإيصالهم إلى ما بعد الحدود الإقليمية لأحد الدول الأوروبية، وما عليهم سوى الصبر والهدوء والدعاء .

في زاوية صغيرة على ظهر المركب جلس إسماعيل بجوار أمّه مراقباً لإخوته وحريصاً على بقاءهم معاً. يراجع سراً

بعض الآيات ويمر أمامه شريط ذكريات رحلة حياته في ليبيا. كان حزيناً أن ترك أرضاً تحتضن جسد والده وذكريات حياته. ولكن عليه أن يسعى لتأمين حياة أمّه وإخوته. ولم يكن هناك أملاً لحياة أفضل من أمل قوارب الشمال.

سارت الرحلة بهدوء لساعات ثم بدأت بعض التيارات المفاجئة تجرف المركب بقوة وعنف، صمد المركب ما استطاع ولكن نفاد الوقود ترك المركب مستسلماً لقوة الطبيعة. أصاب الهلع الركاب فتصدر أحدهم المشهد لتهدئتهم، واستسلم الجميع للقدر. يوم كامل في عرض بحر ساكن وتحت الشمس ملتهبة. بدأ الجميع فالتذمر من العطش والتعب، وقبل بزوغ الفجر لمح من في القارب أضواء خافتة، تسطع تدريجياً وتقترب. تأمل الجميع أن تكون دوريات دولية.

إسماعيل يرقب المشهد بقلق، يمسك أخويه بشدة ويطمئنهم. ويلحظ اقتراب المركب، ويسمع صراخ الركاب يطلبون المساعدة بلغات أجنبية يرفعون الأطفال على أكتافهم ليشفقوا عليهم. وما إن اقترب المركب المنقذ حتى

اتضح أن لهجة من فيه هي اللهجة الغرباوية! وهكذا عاد المركب أدراجه للحدود الليبية وتم إنقاذ الحالمين بجنة أوروبا من جحيم المجهول.

أدرك إسماعيل أنّ مدخرات والده ذهبت هباءً منثوراً، لكنه كان شاكراً أن عاد وأسرته سالماً من قوارب الموت الشمالية. تم إيداعهم في معسكرات تابعة لطالبي اللجوء لحين النظر في أمرهم، وهم إسماعيل الوحيد أن يبقى مع أمّه وإخوته.

خضرٌ مُخططون

يستعد وليد للاحتفال بعرسه، فبعد خمسة عشر عاماً من العمل أكمل تجهيزات ومتطلبات العرس. العروس ثريا أخت صديقه، أو بالأحرى أخيه الذي لم تلده أمه. سيكون احتفالا غير عادي بلا شك فهو أول عرس في بيت أبو وليد. قبل العرس بيوم واحد بدأت وفود الأقارب بالتجمع في بيت العريس، ستكون مراسم العرس كما خططت أم وليد سبعة أيام وسبعة ليالي. الكل يحاول الظهور في أبهى صورة والتعبير عن سعادته بأي شكل من أشكال الاحتفال.

لم يكن بيت العروس قريباً، يلزم الوصول إليه نصف ساعة بسرعة متوسطة. كان زمناً مثالياً للمشاركين بالموكب للاحتفال على أنغام أبواق السيارات والزغاريد وأهازيج الشتاوات.

فاليوم الأول من العرس تم عقد القرآن في بيت أهل العروس، لم يكن للنساء حضور مهم. واكتفت أم وليد

بإرسال وفد ترأسته هي ليبارك ويشرف على حنة العروس. وبالفعل ليلاً ذهبت أم وليد مع بعض النسوة للمباركة والاحتفال مع أهل العروس.

فاليوم الذي يليه احتفلت أم العريس عشية بنقل المؤونة التي من المفترض أن تستخدمها أسرة العروس من ذبائح وخضار وتوابل ومواد تنظيف. رافقتها بعض الجارات والقريبات في موكب بسيط وأقمن الوصلات الغنائية الشعبية، أُستُقبل الوفد بحفاوة وكرم بالأهازيج والزغاريد. شاركت أم سالم صديقة أم وليد في ذلك الموكب ولم تخفي سعادتها فهي الصديقة المقربة لأم وليد. أم سالم وقد أسمت نفسها أم الشهيد الذي فارق الحياة في صفوف الثوار، لا زالت تحتفظ بشعار علم ليبيا المخطط على معصم يدها منذ ثلاث سنوات، تتخذه كتميمة لِتُبقي روح ولدها حولها.

أم المعتصم على الجانب الآخر كانت أحد أقارب العروس، خسرت ابنها المعتصم في قصف لقوات حلف شمال الأطلسي على معسكر لقوات النظام. أم المعتصم اتخذت من اللون الأخضر شعار حياة، وعهداً وميثاقاً لا حياد

عنه. فستانها، ووشاحها وحقيبة يدها وإسورة خضراء تزين معصمها. تشمئز من ألوان العلم الجديد، وتفقد أعصابها فور رؤيته.

لاحظت أم المعتصم أم سالم تغنى مع وفد أهل العريس، فاقتحمت حلبة الغناء وأطلقت العنان لهجاء الثورة الجديدة وتمجيد الثورة القديمة. قبل ذلك كان المشهد مفعماً بالود والوئام وبعد تلك المبارزة الغنائية غطت غيوم الشحناء أجواء الإحتفال. لينتهي ذلك اليوم بالكثير والكثير من القصص والروايات عن من ابتدئ الهجوم وماذا قيل.

رجعت أم وليد وفي قلبها حسرة على إفساد أجواء ذلك اليوم، وساورها القلق حول تفاقم الوضع فالأيام التالية. أبلغت وليد مخاوفها فأخذ مخاوفها على محمل الجد. جميل أن يحتفل المرء بمناسباته السعيدة، والأجمل أن يسود الود والسلام.

أخذ وليد قراراً بإيقاف العرس وأخذ عروسه لبيته الذي بناه ليحيا حياة هادئة وينشئ أسرة متماسكة في أرض

تتوق للسلام. لم تعترض ثريا على إيقاف العرس فجرح أم سالم حديث كما جرح أم المعتصم، ولربما أخذ الأمر وقتاً طويلاً لالتئام الجروح النازفة.

الأرواح المفقودة لن تعود إن خططت لها الدنيا بأجمعها ولن تنبت مجدداً فالدنيا لتخضر، ولا أحد يدري كم يطول به العمر ليستمر في العيش بدون سلام.

سلامُ الماضي

لكل مجتمع بيئي ظواهر ومظاهر، وله قوانين تنظم حياة الأفراد والمجموعات، وتحكمه قواعد وعلاقات، هكذا الحياة. والمجتمعات البشرية ليست بمستثناة، ولكن التغيرات المفاجئة بالقوانين والعلاقات غالباً ما تكون غير مدروسة ونتائجها وخيمة.

في قرية جنوبية صغيرة نائية عن المدن الثائرة، سكانها يحييون حياة بسيطة، يحفها الود ويخيم عليها المحبة والسلام، بانسجام يعيشون حياتهم المعتادة في ذاك المناخ الحار الجاف. والغالبية العظمى منهم اعتادت التعايش أو بالأحرى التكيف والتأقلم الاجباري مع مناخ المنطقة. ويتمتعون بميزة انعزالها عن أي محيط مشتعل بنيران الحرب، ولكن آثار الحروب لا حدود لها.

هناك وفي بيت متواضع تعيش الجدة هنية وتعيش معها أسرة ابنها الوحيد يوسف، وجود كبار السن في أي بيت يجلب البركة ويضفي سلاماً ومتعة. تمضي الحاجة هنية

جل أوقاتها بين صلاة وتسبيح وملاعبة أحفادها، وهم من يتسابقون للظفر بحضنها الحاني ويستمعون لقصصها وحكاياتها ويتراقصون على أنغام اهازيجها الجميلة. وها هو بيت الحاجة هنية مزار لكل الأقارب فبركة الجدة مرغوبة ووصلها رحمة وقربة.

لم تكن الحاجة هنية تحبذ الحديث عن السياسة، ولكنها ممتنة لقائد عيّن لها معاش بعد ترملها وهي في رعيان شبابها. كان معاشا كافيا لاحتياجاتها وبعد الثورة أصبح بالكاد يغطي نفقات الأدوية التي تتعاطاها لضبط مستويات السكر والضغط وبقية الأدوية إضافةً لإجراء التحاليل الطبية بشكل مستمر. وما زاد الوضع سوءاً إصابتها بجلطة لارتفاع مفاجئ في الضغط، كل ذلك بسبب أخبار الموت وصور الموتى والجرحى المذاعة عبر الإذاعات. تعافت الجدة لكن مرضها المفاجئ غير الكثير من قوانين البيت، ألغيت كل المحطات الليبية من تلفزيون حجرتها، ولم يترك يوسف إلا قنوات الطبخ والطبيعة والقنوات التي تبث القرآن الكريم أو المسلسلات البدوية. كل من فالقرية على علم بعدم

الحديث عن السياسة معها والاكتفاء بتسليتها والتخفيف عنها. وهكذا تم عزلها عن حاضر ليبيا لتحيا بسلام مع ماضيها.

بعد الثورة تأزمت حالة البسطاء، المصارف فرغت من العملة النقدية. وارتفعت الأسعار بشكل مبالغ فيه. وقد تختفي أو تتقطع بعض الأساسيات بشكل مفاجئ كمشتقات النفط أو الكهرباء. هذا الوضع أرهق ميسوري الحال فما بالك بمحدودي الدخل. لاحظت الجدة تلك التغييرات ولم تسأل لأنها لم تعد تفضل الحديث بل كانت تكتفي باستئناسها بهم واستماعها لأحاديثهم ما شغلها عن أي متغيرات وأسبابها. ورغم حالها، لم تكن تستطيع إخفاء قلقها من غياب ابنها لساعات طوال خارج المنزل. ابنها الأستاذ يوسف مدرس الرياضيات بالمدرسة الإعدادية لم يتقاضى راتباً منذ أشهر ولهذا تصرف بما كان يذخره وافتتح مشروعاً صغيراً لتجارة الأقمشة الصيفية الخفيفة اللائقة بمناخ قريتهم. يكسب منه ما يعينه على تدبر احتياجات أسرته ورعاية والدته. باندلاع الحرب بالشمال تقطعت السبل

بقرى الجنوب عن الموردين خارج الحدود. وحتى في حال توفر السلع لم تكن أسعارها مناسبة لمن يدير مشروعاً صغيراً وجل زبائنه يعتمد على مرتبات من دولة فقدت نظامها. تأقلم تدريجياً مع قساوة الظروف كما اعتادوا قساوة المناخ، فكان كلما ألف تجارة وأصابها الكساد فتح باب التجارة بسلعة مختلفة. وهكذا استطاع أن يعيل عائلته وينشغل عن السياسة وانقساماتها والحرب وساحتها.

الجدة كما هي في حجرتها التي هي بالأساس قبلة البيت، يلجأ أليها الأطفال ويطوف بها الزوار. ثلاث سنوات عاشتها الأسرة تكافح الظروف سعياً للاستقرار الصحي والمادي. تحسنت حال الجدة هنية خلالها كثيراً. بينما يكتسب يوسف خبرة ومالاً وتعلم إدارة المشاريع. وكلما أحس يوسف استقرار الأوضاع الاقتصادية بعد الهدوء النسبي في مناطق حرب، تنشب حرب أخرى فتزيد الحال سوءاً.

تحتاج الجدة هنية لإجراء فحوصات طبية، يعتقد الطبيب المناوب بالمستشفى القروي أنها لربما تحتاج

لإجراء قسطرة لفحص قلبها على وجه السرعة، هز ذلك الخبر أركان يوسف أمّه في خطر ولم يكن لديه مال كافي ثمناً للعلاج. رواتبه ورواتب أمّه المدخرة قصراً بالمصرف لعدم توفر السيولة كانت ستغطي كامل التكاليف. ولربما تلك السيولة المعدومة كان سيأتي بها ثمن أحد الصواريخ ولكن للثورة أجندات!

اقترض يوسف مالاً وانطلق على وجه السرعة بوالدته مئات الكيلومترات رغم الحروب الدائرة بالعاصمة. على أمل إنقاذ روحها، وصل المستشفى ليرى عشرات الضحايا من الشباب نتيجة الصراعات المسلحة المستمرة. لم تكن مهمة إيواءها المستشفى سهلة على الرغم من توصية المستشفى القروي. وبعد ساعات من المحاولات تم تحويلها لمشفى آخر وافق أن يستقبلها، ولكن للأجل توقيت لا يُؤخر. باتت هنية ليلةً هنية لتعود روحها لسلام ماضٍ وإن ساء.

مقابر

ها قد وضعت الحرب أوزارها، لازالت المدينة خاوية عن عروشها. تفوح منها رائحة الموت وأطلال مبانيها شاهدة على قساوة المعركة. لم تختر موقعها بلا شك وإن كانت توسطت الحد الفاصل بين المؤيدين والمعارضين، وبين أحزاب المعارضين المتعارضة. لكنها لم تقصد السماح لهم بإطلاق العنان لجنونهم بين أزقتها. لم يمهل سكانها الكثير من الوقت فالمتصارعين يريدون ضمها لحدودهم بأي ثمن. وإن كان الثمن هدمها على القاطنين فيها والمتشبثين بها.

كيف يصدق أن عاقلاً يستعمل هذه القوة على أرضه، الأرض جماد ولكنها إن حدثت ما فُعل على وجها لَبَكت وأبكت. ولا اشتكت أن الغريب قد رحمها وأشفق عليها عندما تعالت أصوات المتناحرين على كسب حدودها. فلو لم تتدخل القوى الخارجية لإنهاء الحرب على وجه

السرعة لا اشتعلت نار الحرب لتحرق المدينة ومن يتجرأ على الدخول إليها.

وانتهت الحرب ليرجع كلٌ من حيث أتى، وليفتح باب السلام. ولكن مهلاً أين سكان المدينة؟ إلى أي وجهة ارتحلوا؟

لدى النسوة أملاً في العثور على الرجال، بعضهم قد ترك خيط أمل في زوايا ذاكرة مخضبة بالدماء مفادها اقتيد للتحقيق. والبعض الآخر اختفى في ظروف غامضة. بدأ الأمل يتلاشى حينما عثر على أول مقبرة جماعية على حدود المدينة.

ذاع الخبر في كل مكان، وكأن أهل المدينة قد خسف الله بهم الأرض كيف لا وقد توالى اكتشاف المقابر في حدود كانت تعيش بسلام، فبأيّ ذنب قتلوا؟

شموع أمل ونهر حياة

بدأ الشتاء يكشر عن أنيابه فترتعش عروس البحر برداً، تنتابها نشوة الخلاص من كابوس الاشتباكات وتتباهى على شقيقاتها اهتمام العالم أجمع بها، وحُقّ لها ذلك أليست واجهة ليبيا وعاصمتها.

في شقة صغيرة تعيش منى وزوجها وأطفالهم في أحد أحياء عروس البحر، تأثرت منى من الاشتباكات المسلحة. فلقد عايشوا النزاعات المسلحة المتكررة وخاضوا تجارب النزوح والحصار، ولربما اعتادوا شح الماء وانقطاع الكهرباء.

في الآونة الأخيرة تدهورت حالتها النفسية كثيراً، البرد قارس في شقتهم، وانقطاع الكهرباء يزيد الأمر تعقيداً. فلا سبيل لتشغيل المدفأة ولن يعمل السخان الكهربائي ولهذا ستتجمد المياه في المواسير، هذا إن وجدت مياه. فبمجرد تأثر شبكة الكهرباء العامة سيقل ضخ مياه النهر الصناعي للعاصمة ولربما انقطعت أياماً.

اليوم لديها مناسبة سعيدة فمنذ مدة كثرت شكواها ولاحظت تأثر أبنائها من ذبولها بسبب الأحداث، أرادت أن تحتفل بانتهاء الفصل الأول للعام الدراسي وتظهر لهم سعادتها بنجاحهم وتفوقهم رغم الأحداث والانتقال المتكرر من سكن لآخر.

ستعد قالب كيك وستوزع الهدايا التي اشترتها لهم، علي لن يتغيب عنهم فلقد وعدهم باقتطاع ساعات من دوامه المسائي ليشاركهم الاحتفال. علي أيضاً يحتاج لما يضفي السرور على روحه المنهكة من تبعات الثورة على البسطاء، بعد أن وجد نفسه مضطراً للعمل ليل نهار ليتمكن من إعالة أسرته وترك إدارة المنزل لمنى. فنادراً ما يتمكن من الرجوع للبيت قبل نوم الأطفال.

حل الصباح أخيراً، غادر علي لعمله وبدأت منى روتين الصباح. في حجرة المعيشة يتهامس الأطفال فرح أيقظت إخوتها تفاؤل وسعيد، ليحضروا زينة الاحتفال سراً. عليهم تجهيز البالونات وترتيب حجرة المعيشة التي يقضون فيها جل يومهم وينامون فيها.

فرح ذات العشر سنوات تريد إهداء والديها كرت شكر لما قاموا به من أجلهم. تفاؤل ستفتتح الحفل ولهذا أخرجت دفتراً وقلماً وبدأت تصيغ كلماتها. أما سعيد سيكتفي بتعليق الزينة ولربما سيغني مع أخواته أغنية بابا وماما يحبوني رغم أنه لا يحفظ الكلمات جيداً كأختيه.

يعد الأطفال الساعات ليس بانتظار حلول المساء ولكن بانتظار رجوع الكهرباء. والأم كذلك تراجع المكونات التي تنقصها لتشتريها قبل رجوع الكهرباء.

ها قد انتصف النهار ولم ترجع الكهرباء، بدأ الجميع يفقد حماسته. فطمأنت منى الأطفال بأن الشمس موجودة ومن الجيد أن ترجع ليلاً لتسير حفلتهم كما خططوا لها.

منى قلقة، لم تجهز كعكة الاحتفال فالكهرباء لازالت مقطوعة. لا يمكنها تأخير إعدادها أكثر من ذلك. لم تعتد استعمال الغاز لذلك ولكنها ستضطر لذلك اليوم.

جهزت الكعكة والكهرباء لم ترجع. تجهز الأطفال وأكملوا تجهيز موقع الاحتفال. يتساءلون هل سنحتفل حتى فالظلام.. وجدت منى نفسها مجبرة على التفاؤل وإظهار السعادة ليفرح الأطفال. سترجع الكهرباء وسنحتفل.

فرغ خزان المياه الاحتياطي ولم تقلق الأم كثيرا فمجرد رجوع الكهرباء سيملؤونه بالماء.

بدأ الضجر والاستياء بمهاجمة الأطفال، تحس منى أيضاً بذلك ولكنها لم ترد إظهار ذلك. رجع علي ليجد منى والأطفال ملتفين حول إنارة ضعيفة من هاتفها المحمول.

وجوه بريئة تعلوها علامات الغضب والاستياء. يمازحهم هل أكملوا احتفالهم، فيتهافت الأطفال باكين لحضن والدهم فيطمئنهم.

ينزل علي مجددا ليجلب شيئا من السيارة ترافقه فرح لتنير بكاشف الهاتف المحمول الدرج لوالدها. لم يغفل علي عن حاجة أسرته للضوء والماء، ربما لن يستطيع شراء مولد للطاقة لكنه رجع محملاً بالشموع وبراميل المياه.

سار الاحتفال كما خُطط له على ضوء الشموع في قلب عروس البحر. لم تحتمل الأسرة المتظاهرة بالسعادة خيبة أمل أخرى فما كان منهم إلا تصديق سعادتهم بحفلة أقاموها كما أرادو وكل شيء كان على ما يرام. ناموا جميعاً في حجرة المعيشة على نور شمعة خافت. يلتحفون البرد والهم في قلب عروس البحر.

ليته لم يغب

عندما يصبح الفن سلاحاً لا تستغرب سهولة الاجتياح، هذا ما استنتجه ندى بعد اجتياح عقلها بكلمات مقفاه في ظروف غير مستحبة. فراق الأهل والأحبة، خذلان يتلوه خذلان. حاجة ووحشة وألم حنين وشوق، وشعور المرض والقلق والخوف. كل ذلك جعلها تشعر بضعف وهوان، وهذا طبيعي فكل منّا يواجه ما يجعله مكبلاً فيحاول جاهداً التخلص من مخاوفه أو على الأقل مواجهتها والاعتراف بوجودها.

في بعض الأحيان نتمنى نزع ثوب القوة ونرتمي في زوايا أمنة تستقبل ضعفنا وحيرتنا وشتاتنا وتؤوينا من هموم القلق والتفكير وتحمينا من مخاوفنا. ومن المؤكد أن الآلام لا تقاس بالتعبير، بل تأتي متدافعة كحمم البركان، تحدث انهيارات وانفجارات. وتترك من وراءها رماد وآثار جروح وانكسارات، نخفيها فتتعاظم أو نكشفها فتتفاقم. فنتوق لإيجاد مسبب نرمي عليه أسباب الانهزامات.

هذا تماماً ما حدث لندى، تراكمت من حولها ضغوط حاصرتها كثيراً، صراع بين ما يستوجب حلاً عصرياًّ وبين الأعراف والعادات. بين الوعود ونكثها بحجة عدم وجود مواثيق وإثباتات. حتى الوظيفة والمعاملات كلها تضّيق عليها الخناق وتشعرها بضعفها وترغمها على التخلي عن هويتها وذاتها. كانت غصناً غضاً نديًّا ولكن شعور أنها شوكة تنغص حياة من حولها آلمها كثيراً، وهذا ما دفعها لآخر محاولات زرع جدور ثابتة تحمل ثقلها فلا تثقل عاتق أحدهم.

عادات وتقاليد تجعل الجفاف والجفاء ميزة، بينما الرعاية والاحتواء عيب ونقص. فاكتسبت من قساوة الجبال القريبة لقريتها صلابة علت سهلاً هشاً من مشاعرها المرهفة، استجار بها وداي عينيها لكنه فشل في بناء سد يمنعهما الفيضان. فبالرغم من أنها في أغلب الوقت تُظهر تماسكاً وصلابة ما كانت تنبغي لفتاة، تخونها قوتها لقرب دمعتها. ما طبعها ذاك إلا بسبب نشأتها والبيئة التي عاشت فيها، ويبقى قلب الفتاة بداخلها حيّاً يعصف بقوتها فيرديها هباءً منثوراً.

منذ طفولتها وأحلامها كبيرة، يستغرب أن تُنسج لطفل صغير. وكلما زادت عمراً ازدادت الصعوبات التي تقلل فرص تحقيق أحلامها، ولهذا تجدها فالغالب تميل إلى تقبل الخيار البديل. خياراً يُفصّل لها على حسب الأهواء والأمزجة. وإن تغيرت الخطط تبقى إرادتها كامنة لتخطي حدود أي قالب وجعله يحاكي هواها ومزاجها. كانت بذاتها ثورة دائمة.

اعتادت ندى نشوب حرائق من فتيل الاختلافات، حاولت إخمادها بالتخلي عن أحلامها والتنازل عنها وإلا فعليها المخاطرة بخوض الحروب وحيدة.

مطلع الثورة كانت ندى تراقب المشهد بهدوء وحزن وألم ولهذا انحازت لعواطفها وأعلنت ميلها للثوار الجدد. ظلت على موقفها المؤيد لأفكار الثوار ولا سبب ولا دافع لذلك سوى التعاطف.

انتصار الثوار ألهمها خوض ثورتها واستعادة أحلامها. استغرقها الأمر سنوات من عمرها لتفوز إرادتها، فَحُق لها السعادة. ولكن للسعادة دوماً حدود، وحدودها تنتهي

عند تعاسة الآخرين. حينها قد نتخلى عن سعادتنا لنُزيل تعس أحدهم، وإن كان التعس ادعاءً. كانت نموذجاً مصغراً لثورة البلد، فثورتها سامية ضد أفكار رجعية كما قامت ثورة الثوار على ما أسموه نظاماً رجعياً. والثورة ما هي إلا انفجار إما يعقبه عمار يزهر به العمر أو دماراً يحرق ربيع العمر ويخلف خريفاً قد لا يخضر.

و هكذا ما إن انتصرت ثورتها وتخطت سعادتها لتتعس غيرها توقفت، ولكن لم تتخلى عن سعادتها، أدركت حينها أن اعترافها باستحقاقها حقوقاً يوجب عليها تقديس حقوق مستحقيها. فتصالحت مع تعساء حدودها لترسم حدوداً لها بعيداً عن محيط قدرتها وكان عليها اختيار الوِحدة طالما عجزت عن دمج سعادة ما وراء الحدود وإعلان وحدتها. حينها لم تفكر البتة بتغير الظروف بسبب اختلاف التوجهات والسياسات وخيارات المحيط والحدود. بل كنت مندفعة لإثبات قدرتها وأهليتها ونفي عجزها واتكاليتها.

والتحليق بعيدا عن السرب شيء شاق وصعب، هذا تماماً ما حصل لثوار الوطن حينما عجزوا عن الوحدة

والاتحاد انقسموا شعوباً وطوائف وأحزاب، غير أن ندى مسالمة ستكتفي بإجراء سيل دموع وتقبل انكسار وخذلان. بينما الثوار اختلاف توجهاتهم وانقسامهم زاد شتاتهم وأجرى أنهار دماء.

كل يوم يزداد الثوار انقساماً وكل يوم كانت ندى تفقد حليفاً رفضت وصايته وسجنه لذاتها وتماديه لطمس أحلامها. رغم أنها تعلم أن سعادتها لم تكن سبب شقاء من حولها ولكن وأد سعادتها سيكون قرباناً لخلود معتقدات وعادات يعتقدون أنها منبع سعادتهم؛ وهكذا الوطن تماماً.

ولتستمر ندى بالمقاومة كان عليها إيجاد سبب للاستمرار بحربها، وباعتقادها أنها لن تستمر إلا إذا وجدت نقاط ضعفها. أحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما قاسته ولماذا قاسته وهل ندمت على تبنيها لفكرة الثورة على قمع العادة والتقليد. وما إن انتهت حتى كتبت في محرك البحث عن المعلومات بالشبكة العنكبوتية أغاني ليبية فتصدرت القائمة أغنية تنعي غياب قائد. أثارت فضولها

فشغلتها لتفيض خزائن مقلتيها. لم تكن مقتنعة ولكن ثمن الثورات باهظ وثمارتها قد يبطء ينوعها.

بعد وصلة نحيب أدركت ندى أن الثورة إن أُريد لها النجاح فلابد من حفظ مكوناتها من الانقسامات والشتات بمراجعة أهدافها، ولا بأس في تقديم بعض التنازلات لضمان حفظ حدود الحقوق والواجبات.

لم تكن وصلة الرثاء الفنية التي استمعت لها ندى مقنعة، ولكنها حركت بداخلها بركان عواطف جياشة. هي ضعيفة نعم، ولم تعد تحتمل بالطبع، لكن لابد لثورتها أن تهدأ قليلاً لتعيد حياكة أحلامها في أفق سماء صافية. ارتدت قناع القوة وتصالحت مع حراس حدودها لتكسب هدنة تمكنها من التصالح مع ذاتها فتنتصر ثورتها ويوماً ما سنرى ثمار ثورتها تُعجب الثوار.

الفهرس

الإهداء 3

مقدمة 4

غَريبٌ في وَطني 5

عرس الفقيد 17

بلا مأوى 21

دهاليز السياسة 25

كبوة جواد 27

الثروة السائبة 30

هَلِّي أراك 34

حدود الغنى 39

لك أشتاق 44

بلا جواز 49

قوارب الشمال 54

خضرٌ مُخططون 62

سلامُ الماضي 66
مقابر 71
شموع أمل ونهر حياة 73
ليته لم يغب 78

لها أهديها...
كانت معي، تِسمعني... أحاكيها فتنصت وتصوب، تتأثر وتنسجم وتسرح معي في خيالي.
أطالع تعابير وجهها الجميل وأحسبها قد ملت سردي فتأمرني بانسجام " كَمِلِي". وإن استعصى عليها فهم المضمون تعلق "خَرّفِي".. وقد تضحك بإعجابٍ معقبة " قطافة"...
لم أكن أعلم أن هذه المجموعة المتواضعة ستبصر النور بعد غيابها هي، وكأنها ولدت لتخلد حكاياتٍ كثيرة دارت وراء الكواليس معها هي، وتروي قصصاً وقعت أحداثها في أرض عظيمة قبل أن تواري جثمان أمٍ عظيمة...
هي الأم التي لأجلها كتبت ولها هي أهديها...

رحم الله أمي الحبيبة

منشورات الطيوب
سلسلة الكتاب الليبي